عبودية الشهوات

إعداد

د. عبدالعزيز بن محمد بن علي العبداللطيف

دار الوطن للنشر

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار الوطن للنشر - الرياض
هاتف : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس :٤٧٢٣٩٤١ - ص ب : ٣٣١٠
البريد الالكتروني : pop@dar-alwatan.com
موقعنا على الانترنت : www.dar-alwatan.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عبوديـــة الشـــهوات

التعلق بالله عز وجل وقصده وإرادته هو أساس التوحيد ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله، والله سبحانه وتعالى هو المستحق وحده أن يكون هو المقصود والمدعو والمطلوب.

يقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله: «فإن الإله هو المقصود المعتمَد عليه، وهذا أمر هيّن عند من لا يعرفه، كبير عظيم عند من يعرفه»[١].

ومن لم يكن الله عز وجل مقصوده وغايته، فلابد أن يكون له مقصود ومراد آخر يستعبده، كما وضّح ذلك ابن

---

(١) الدرر السنية ٢/ ٢١، وتاريخ ابن غنام ٢/ ٥٢، ٢٩٨، وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٣٤.

تيمية بقوله: «الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله، كان أعظم إشراكاً بالله، لأنه كلما استكبر عن عبادة الله تعالى ازداد فقراً وحاجة إلى المراد المحبوب الذي هو المقصود.

فلابد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته بل استكبر عن ذلك، فلابد أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله، فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب، إما المال، وإما الجاه، وإما الصور، وإما ما يتخذه إلهاً من دون الله»[١].

والناظر إلى واقعنا الحاضر يرى أنواعاً من التعلق بالشهوات والافتتان بها، فما أكثر المسلمين الذين أُشربوا حبّ الشهوات من النساء، والأموال، والملبوسات،

---

(١) العبودية ص١١٢ ـ ١١٤ بتصرف، وانظر: مجموع الفتاوى ١٠/ ١٨٥ ـ ١٨٧، والفوائد لابن القيم ص١٨٦.

والمركوبات، والمناصب، والرياسات، والولع بالألعاب والملهيات.

وهذه الرسالة تتحدث عن جملة من تلك الشهوات التي استحكمت على أفئدة وعقول كثير من الناس.

ولعل من المناسب أن نتحدث ابتداءً عن الموقف الصحيح تجاه الشهوات إجمالاً قبل الحديث عن بعض أفرادها تفصيلاً.

إن المسلك العدل إزاء الشهوات وسطٌ بين مسلك أهل الفجور والفواحش ومسلك أصحاب الرهبانية والتشدد، فأهل الفجور أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وأهل الرهبانية حرّموا ما أحلّ الله من الطيبات، ودين الله عز وجل يراعي أحوال الناس، ويدرك ما هم عليه من الغرائز والشهوات، لذا فهو يبيحها ويعترف بها، لكنه يضبطها ويهذّبها.

يقول ابن القيّم مقرّراً هذه الوسطية: «لما كان العبد لا ينفك عن الهوى ما دام حياً، فإن هواه لازم له، كان الأمر

بخروجه عن الهوى بالكلية كالممتنع، ولكن المقدور له والمأمور به أن يصرف هواه عن مراتع الهلكة إلى مواطن الأمن والسلامة، مثاله أن الله سبحانه وتعالى لم يأمره بصرف قلبه عن هوى النساء جملة، بل أمره بصرف ذلك إلى نكاح ما طاب له منهن من واحدة إلى أربع، ومن الإماء ما شاء، فانصرف مجرى الهوى من محل إلى محل، وكانت الريح دبوراً فاستحالت صباً. . .»[١].

واتباع الشهوات والانكباب عليها يؤول إلى استيلائها على القلب، فيصير القلب عبداً وأسيراً لتلك الشهوات، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس يستولي على قلب أحدهم ما يشتهيه حتى يقهره ويملكه ويبقى أسير ما يهواه يصرفه كيف تصرف ذلك المطلوب.

فما يمثله الإنسان في قلبه من الصور المحبوبة تبتلع

---

(١) روضة المحبين ص١١، وانظر: ذم الهوى لابن الجوزي ص٣٥.

قلبه وتقهره، فلا يقدر قلبه على الامتناع منه، فيبقى قلبه مستغرقاً في تلك الصورة. . . والقلب يغرق فيما يستولي عليه، إما من محبوب وإما من مخوف، كما يوجد من محبة المال والجاه والصور، والخائف من غيره يبقى قلبه وعقله مستغرقاً فيه كما يغرق الغريق في الماء. .»[١]

وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله : «من لزم الشهوات لزمته عبودية أبناء الدنيا»[٢].

وإذا كان الإفراط والانهماك في الشهوات مذموماً شرعاً، كما قال عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾[٣]، فكذلك اتباع الشهوات مذموم عقلاً، فإن العاقل البصير ينظر في عواقب الأمور، فلا يُؤثِر العاجلة الفانية على الآخرة الباقية.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٥٩٤، ٥٩٥ = بتصرف يسير.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٩٧.
(٣) سورة مريم، الآية: ٥٩.

يقول ابن الجوزي: «اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً، وإن كانت سبباً للألم والأذى في العاجل، ومنع لذات في الآجل.

فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تعقُب ألماً، وشهوة تورِث ندماً، وكفى بهذا القدر مدحاً للعقل وذماً للهوى.

وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالباً، وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل، فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كف الهوى، إلى أن يتيقن السلامة من الشر في العاقبة»[1].

وليعلم العبد أن الصبر عن الشهوات وما فيها من الإغراء والبريق والافتتان أيسرُ من الصبر على عواقب الشهوات وآلامها وحسراتها، كما بيّنه ابن القيّم بقوله:

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزي ص٣٦ باختصار.

«الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجِبه الشهوة، فإنها إما أن توجب ألماً وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتاً إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضاً توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تُذْهِب مالاً بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدراً وجاهاً قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب هماً وغماً وحزناً وخوفاً لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسي علماً ذكره ألذ من نيل الشهوة، وإما أن تُشمِت عدواً وتحزن ولياً، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيباً يبقى صفة لا تزول، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق»[1].

ومما يحسن ذكره هاهنا أن أعرابياً عشق امرأة، فطال به

---

(١) الفوائد ص١٣١.

وبها الأمر، فلما التقيا وتمكن منها وصار بين شُعَبها، ذكر الدار الآخرة، فقال: والله إن امرءاً باع جنة عرضها السموات والأرض بفِتْرٍ[١] بين رجليك لقليل البصر بالمساحة[٢].

* * *

(١) الفِتر: ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة بالتفريج المعتاد. انظر: المصباح المنير ص٥٥٢.
(٢) ذم الهوى لابن الجوزي ص٢٥٦.

شـــهوة النســـاء

وأما عن شهوة النساء، أو بالأحرى شهوة الجنس عموماً فإن المتأمل في أحوال المسلمين ـ فضلاً عمن دونهم ـ يرى سعاراً تجاه هذه الشهوة، وولوغاً في مستنقعاتها الآسنة، فما أكثر المسلمين العاكفين على متابعة الأطباق الفضائية وشبكات «الإنترنت» وقد سمّروا أعينهم في سبيل ملاحقة برامج الفحش، وما أكثر الذين يشدون رحالهم إلى بلاد الكفر والفجور في سبيل تلبية شهواتهم المحرّمة، والله المستعان.

لقد تكالب شياطين الإنس والجن مع النفوس الأمّارات بالسوء على إفساد عفاف المسلمين وأخلاقهم، قال سبحانه: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾[1].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٧.

ومما يجدر ذكره أن من أرخى لشهوته العَنان، فإن سعار هذه الشهوة لا حدّ له ولا انقضاء، وإذا كان الشخص المولَع بالدنيا لا يشبع من المال ـ فلو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ـ فكذا الشخص المولع بشهوة الجنس بدون ضابط أو رادع لا يقف ولا يرعوي.

يقول الشيخ علي الطنطاوي: «لو أوتيت مال قارون، وجسد هرقل، وواصلتك عشرة آلاف من أجمل النساء من كل لون وكل شكل وكل نوع من أنواع الجمال، هل تظن أنك تكتفي؟ لا. أقولها بالصوت العالي: لا. أكتبها بالقلم العريض، ولكن واحدة بالحلال تكفيك.

لا تطلبوا مني الدليل، فحيثما تلفتم حولكم وجدتم في الحياة الدليل قائماً ظاهراً مرئياً»[١].

---

(١) فتاوى علي الطنطاوي ص١٤٦، وانظر صيد الخاطر لابن الجوزي ص٢٦١.

وجاء في الأدب الكبير لابن المقفع[١]: «اعلم أنّ من أوقع الأمور في الدين وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأقتلها للعار، وأزراها للمروءة، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار: الغرامُ بالنساء.

ومن العجب أن الرجل الذي لا بأس بلُبِّه ورأيه يرى المرأة من بعيد متلففة في ثيابها، فيصوّر لها في قلبه الحسن والجمال حتى تَعْلَق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر، ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأدمّ الدَّمامة فلا يعظه ذلك ولا يقطعه عن أمثالها، ولا يزال مشغوفاً بما لم يذق، حتى لو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة، لظن أن لها شأناً غير شأن ما ذاق، وهذا هو الحمق والشقاء والسَّفَه».

إن أشدّ الفتن وأعظمها: الفتنة بالنساء، كما قال النبي ﷺ: «ما تركت بعدي في الناس فتنة أضر على الرجال من

---

(١) ص٩٧ ـ ٩٩ باختصار.

النساء»[١].

قال الإمام طاوس عند قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[٢]: «إذا نظر إلى النساء لم يصبر»[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لم يكن كفر من مضى إلا من قِبل النساء، وهو كائن، كفر من بقي من قبل النساء»[٤].

وهاك أخي القارئ حكايتين واقعيتين تكشفان أن من أسباب الكفر بالله تعالى: عشق النساء.

فأما الحكاية الأولى فقد ساقها أبو الفرج ابن الجوزي بقوله: «وبلغني عن رجل كان ببغداد يُقال له: صالح

---

(١) أخرجه مسلم، ك الذكر ح(٢٧٤٠).
(٢) سورة النساء، الآية: ٢٨.
(٣) انظر: ذم الهوى لابن الجوزي ص١٧٩، وروضة المحبين ص٢٠٣.
(٤) انظر: ذم الهوى لابن الجوزي ص١٧٨، وروضة المحبين ص١٩٧.

المؤذن، أذّن أربعين سنة، وكان يُعرف بالصلاح، أنه صعد يوماً إلى المنارة ليؤذن، فرأى بنت رجل نصراني كان بيته إلى جانب المسجد، فافتتن بها، فجاء فطرق الباب، فقالت: من؟ فقال: أنا صالح المؤذن، ففتحت له، فلما دخل ضمّها إليه، فقالت: أنتم أصحاب الأمانات فما هذه الخيانة؟ فقال: إن وافقتِني على ما أريد وإلا قتلتك. فقالت: لا إلا أن تترك دينك، فقال: أنا بريء من الإسلام ومما جاء به محمد، ثم دنا إليها، فقالت: إنما قلت هذا لتقضي غَرَضك ثم تعود إلى دينك، فكُلْ من لحم الخنزير، فأكل، قالت: فاشرب الخمر، فشرب، فلما دبّ الشراب فيه دنا إليها، فدخلت بيتاً وأغلقت الباب، وقالت: اصعد إلى السطح حتى إذا جاء أبي زوّجني منك، فصعد فسقط فمات، فخرجت فلفّته في ثوب، فجاء أبوها، فقصّت عليه القصة، فأخرجه في الليل فرماه في السكة، فظهر حديثه، فرُمي في

مزبلة»[١].

وأما الحكاية الأخرى فقد ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله في حوادث سنة ثمان وسبعين ومائتين ما يلي: «وفيها توفي عبده بن عبدالرحيم قبحه الله، ذكر ابن الجوزي أن هذا الشقي كان من المجاهدين كثيراً في بلاد الروم، فلما كان في بعض الغزوات، والمسلمون محاصروا بلدة من بلاد الروم، إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن فهويها فراسلها: ما السبيل إلى الوصول إليك؟ فقالت: أن تتنصَّر وتصعد إليّ، فأجابها إلى ذلك، فما راع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتمَّ المسلمون بسبب ذلك غماً شديداً، وشق عليهم مشقة عظيمة، فلما كان بعد مدة مروا عليه وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن، فقالوا: يا فلان، مافعل قرآنك؟ ما فعل علمك؟ ما فعل صيامك؟ ما فعل جهادك؟ ما فعلت صلاتك؟ فقال:

---

(١) ذم الهوى ص٤٠٩.

اعلموا أني أُنسيت القرآن كله إلا قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[١] وقد صار لي فيهم مال وولد»[٢].

إن الولوغ في الفواحش وارتكابها له وسائل متعددة وأسباب كثيرة، وأدناها: سماع الأغاني، فإن الغناء رقية الزنا وداعية الفاحشة.

وقال يزيد بن الوليد: «يا بني أمية، إياكم والغناء، فإنه يُنقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لَينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر، فإن كنتم لابد فاعلين فجنِّبوه النساء؛ فإن الغناء داعية الزنا»[٣].

وقال ابن القيّم: «ومن الأمر المعلوم عند القوم أن

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٢، ٣.
(٢) البداية ١١/ ٦٤.
(٣) انظر: إغاثة اللهفان ١/ ٣٦٩.

المرأة إذا استصغبت على الرجل اجتهد أن يُسمعها صوت الغناء، فحيئنذ تعطي اللِّيَان. وهذا لأن المرأة سريعة الانفعال للأصوات جداً، فإذا كان الصوت بالغناء صار انفعالها من وجهين: من جهة الصوت، ومن جهة معناه، ولهذا قال النبي ﷺ لأنجشة حاوِيه: «**يا أنجشة رويدك، رفقاً بالقوارير**»[١] يعني النساء.

أما إذا اجتمع إلى هذه الرقية الدفّ والشبابة والرقص بالتخنُّث والتكسُّر، فلو حبلت المرأة من غناء لحبلت من هذا الغناء.

فلعمر الله، كم من حرة صارت بالغناء من البغايا، وكم من حرّ أصبح به عبداً للصبيان أو الصبايا، وكم من غيور تبدّل به اسماً قبيحاً بين البرايا، وكم من مُعافىً تعرّض له فأمسى وقد حلّت به أنواع البلايا»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٠، ٣٧١.

ومن أشد الوسائل فتكاً: النظر المحرم، فكم من نظرة إلى صورة جميلة ـ في السوق أو في شاشة أو في مجلة ـ أعقبت فواحش وآلاماً وحسرات.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «إذا خاف الفتنة لا ينظر، كم نظرة قد ألقت في قلب صاحبها البلابل»[١].

يقول ابن الجوزي محذِّراً من إطلاق البصر: «اعلم وفقك الله أن البصر صاحبُ خبر القلب ينقل إليه أخبار المبصرات، وينقش فيه صورها، فيجول فيها الفكر، فيشغله ذلك عن الفكر فيما ينفعه من أمر الآخرة. ولما كان إطلاق البصر سبباً لوقوع الهوى في القلب، أمرك الشارع بغض البصر عما يُخاف عواقبه، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾، ثم أشار إلى مُسبِّب هذا السبب،

(١) ذم الهوى لابن الجوزي ص١١٦.

ونبّه على ما يؤول إليه هذا الشر بقوله: ﴿أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾، ﴿أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[١]»[٢].

وقد تحدّث شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن النظر المحرّم وما يؤول إليه من الوقوع في الفواحش، بل وقد ينتهي بصاحبه إلى الشرك بالله تعالى.. فكان مما قاله: «وأما النظر والمباشرة فاللَّمَم منها مغفور باجتناب الكبائر، فإن أصر على النظر أو على المباشرة صار كبيرة، وقد يكون الإصرار على ذلك أعظم من قليل الفواحش، **فإن دوام النظر بالشهوة وما يتصل به من العشق والمعاشرة والمباشرة قد يكون أعظم بكثير من فساد زنا لا إصرار عليه، ولهذا قال الفقهاء في الشاهد العدل: ألاَّ يأتي كبيرة ولا يصر على صغيرة.**

بل قد ينتهي النظر والمباشرة بالرجل إلى الشرك، كما

---

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٠، ٣١.
(٢) ذم الهوى ص١٠٦.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾[١]، ولهذا لا يكون عشق الصور إلا من ضعف محبة الله وضعف الإيمان، والله تعالى إنما ذكره في القرآن عن امرأة العزيز المشركة، وعن قوم لوط المشركين»[٢].

وقال ابن القيّم رحمه الله: «وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب؛ فإذا غضَّ العبد بصره غضّ القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته...

إلى أن قال: والنظرة إذا أثّرت في القلب، فإن عَجِل الحازمُ وحسم المادة من أولها سَهُل علاجه، وإن كرر النظر ونقب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة، فلا تزال شجرة الحب تنمى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.
(٢) مجموع الفتاوى ١٥/ ٢٩٢، ٢٩٣.

حتى يفسد القلب ويُعرِض عن الفكر فيما أمر به، فيخرج بصاحبه إلى المحن ويوجب ارتكاب المحظورات والفتن»[١].

ومن أشد الوسائل ضرراً وشراً: اختلاط النساء بالرجال، فإن هذا الاختلاط أنكى وسيلة في الانغماس في الفواحش والقاذورات، وقد كثُر في هذا الزمان من يطالب بهذا الاختلاط ويدعو إليه، حيث ينادون بمزاحمة النساء للرجال في جميع المجالات والأعمال، زاعمين أنهم يريدون الخير والإصلاح لمجتمعاتهم، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[٢].

قال ابن القيم متحدِّثاً عن مفاسد الاختلاط: «ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كل بلية وشر، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما

---

(١) روضة المحبين ص٩٢ ـ ٩٥ باختصار يسير.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢.

أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة. . . وهو من أسباب الموت العام والطواعين المهلكة. ولما اختلط البغايا بعسكر موسى عليه السلام وفشت فيهم الفاحشة أرسل الله عليهم الطاعون فمات في يوم واحد سبعون ألفاً، والقصة مشهورة في كتب التفسير، فمن أعظم أسباب الموت العام كثرةُ الزنا بسبب تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال والمشي بينهم متبرجات متجملات»[١].

وهاهنا أمر مهم ينبغي التنبيه عليه، وهو أن الولع والانكباب على الشهوات سببه ضعف التوحيد، فإن القلب كلما كان أضعف توحيداً وأقل إخلاصاً لله تعالى كان أكثر فاحشة وشهوة[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة: «وهذا

---

(١) الطرق الحكمية ص٢٥٩.
(٢) الفوائد لابن القيم ص٧٥.

[أي العشق والشهوات] إنما يُبتلى به أهل الإعراض عن الإخلاص لله الذين فيهم نوع من الشرك، وإلا فأهل الإخلاص كما قال الله تعالى في حق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[١]، فامرأة العزيز كانت مشركة فوقعت ـ مع تزوُّجها ـ فيما وقعت فيه من السوء. ويوسف عليه السلام مع عزوبته، ومراودتها له، واستعانتها عليه بالنسوة، وعقوبتها له بالحبس على العفة، عصمه الله بإخلاصه لله، تحقيقاً لقوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٢]، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[٣]، والغي هو اتباع الهوى»[٤].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٢) سورة ص، الآيتان، ٨٢، ٨٣.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٢.
(٤) مجموع الفتاوى ١٥/ ٤٢١.

إن الافتتان بالنساء والولع بهن يورث أنواعاً من العقوبات والمفاسد في الدنيا والآخرة.

وأشار ابن الجوزي إلى تنوّع هذه العقوبات فقال: «اعلم أن العقوبة تختلف؛ فتارة تتعجّل، وتارة تتأخر، وتارة يظهر أثرها، وتارة يخفى.

وأطرف العقوبات ما لا يحسّ بها المعاقَب، وأشدّها العقوبة بسلب الإيمان والمعرفة، ودون ذلك موت القلب ومحو لذة المناجاة منه، وقوة الحرص على الذنب ونسيان القرآن، وإهمال الاستغفار، ونحو ذلك مما ضرره في الدين، وربما دبّت العقوبة في الباطن دبيب الظلمة إلى أن يمتلئ أفق القلب، فتعمى البصيرة. وأهون العقوبة ما كان واقعاً بالبدن في الدنيا، وربما كانت عقوبة النظر في البصر؛ فمن عرف لنفسه من الذنوب ما يوجب العقاب فليبادر نزول العقوبة بالتوبة الصادقة عساه يَرُدّ ما يَرِد[1].

---

(١) ذم الهوى ص٢١٧.

وتحدّث شيخ الإسلام ابن تيمية عن عقوبات الشهوة المحرّمة، فكان مما قاله: «فأما من استعبد قلبه صورة محرّمة: امرأة أو صبي، فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه، وهؤلاء من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقاً بها، مستعبداً لها، اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا ربّ العباد.

ومن أعظم هذا البلاء إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له، لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك، ولا ألذ ولا أطيب»[١]

وقال أيضاً: «ولا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب، فإن الشهوة توجب السكر، كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٢] وفي الصحيحين -

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٨٧.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٧٢.

واللفظ لمسلم ـ من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «العينان تزنيان وزناهما النظر» الحديث إلى آخره. فكثير من الناس يكون مقصوده بعض هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث كالنظر والاستمتاع والمخاطبة، ومنهم من يرتقي إلى اللمس والمباشرة، ومنهم من يُقبِّل وينظر، وكل ذلك حرام، وقد نهانا الله عز وجل أن تأخذنا بالزناة رأفة بل نقيم عليهم الحد، فكيف بما هو دون ذلك من هجر وأدب باطن ونهي وتوبيخ وغير ذلك؟ بل ينبغي شنآن الفاسقين وقليهم على ما يتمتع به الإنسان من أنواع الزنا المذكورة في هذا الحديث المتقدم وغيره[1]».

وتحدّث ابن القيّم ـ في غير موضع ـ عن مفاسد الزنا وما يحويه من أنواع الشرور فكان مما قاله ـ رحمه الله ـ : «والزنى يجمع خلال الشر كلها من قلة الدين وذهاب الورع، وفساد المروءة وقلة الغيرة، فلا تجد زانياً معه

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥/٢٨٨، ٢٨٩.

ورع، ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق، ولا غيرة تامة على أهله. . .

ومن موجباته: غضب الربّ بإفساد حرمه وعياله، **ومنها**: سواد الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت، **ومنها**: ظلمة القلب وطمس نوره. **ومنها**: أنه يذهب حرمة فاعله، ويسقط من عين ربه ومن أعين عباده، **ومنها**: أن يسلبه أحسن الأسماء ويعطيه أضدادها.

ومنها: ضيقة الصدر وحرجه، فإن الزناة يعاملون بضدّ قصودهم، فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرّمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده، **فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سبباً إلى خير قط**[1]».

وقال في موضع آخر: «واعلم أن الجزاء من جنس العمل، والقلب المعلّق بالحرام كلما همّ أن يفارقه ويخرج منه عاد إليه، ولهذا يكون جزاؤه في البرزخ وفي

---

(١) روضة المحبين ص٣٦٠.

الآخرة هكذا..

وفي بعض طرق حديث سَمُرة بن جندب الذي في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «**رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني فانطلقت معهما، فإذا بيت مبني على مثل بناء التنور، أعلاه ضيّق وأسفله واسع، يوقد تحته نار، فيه رجال ونساء عراة، فإذا أوقدت النار ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا، فإذا أخمدت رجعوا فيها، فقلت: مَنْ هؤلاء؟ قال: هم الزناة**» فتأمل مطابقة هذا الحديث لحال قلوبهم في الدنيا، فإنهم كلما هموا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنور الشهوة إلى فضاء التوبة أركسوا فيه وعادوا بعد أن كادوا يخرجون»[1].

وقال في موضع ثالث: «وليعلم اللبيب أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش

---

(١) روضة المحبين ص٤٤٢.

الذي لابدّ لهم منه، ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ بها عشر معشار من يفعله نادراً في الأحيان»[١].

ومما ذكره الشيخ محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ في مفاسد البغاء: «في البغاء فساد كبير، وشر مستطير، يفتك بالفضيلة، يدنس الأعراض، يعكر صفو الأمن، يفصم رابطة الوفاق، يبعث الأمراض القاتلة في الأجسام، وأي حياة لجماعة تضيع أخلاقها وتتسخ أعراضها، ويختل أمنها، وتدب البغضاء في نفوسها، وتنهك العلل أجسامها![٢].

وفي ختام الحديث عن هذه الشهوة نورد علاجها وسبيل النجاة منها، وقد بسط أبو الفرج ابن الجوزي في «ذم الهوى» وابن القيم في «روضة المحبين» الحديث عن العلاج وأطنبا في وصفه وتشخيصه، وتميّز ابن الجوزي

---

(١) روضة المحبين ص٤٧٠.
(٢) رسائل الإصلاح ص٢٣.

بإيراد علاج لكل مرحلة من مراحل هذه الشهوة، فجعل للنظر المحرم علاجاً، وجعل للخلوة بالنساء علاجاً وهكذا، وأما ابن القيم فقد ساق خمسين وسيلة في علاج هذه الشهوة على سبيل الإجمال والعموم.

ومما سطّره يراع أبي الفرج ابن الجوزي في هذا المقام: «واعلم أن أمراض العشق تختلف، فينبغي لذلك أن يختلف علاجها، فليس علاج من عنده بداية المرض كعلاج من انتهى به المرض نهايته، وإنما يُعالج من هذا المرض من لم يرتق إلى غايته، فإنه إذا بلغ الغاية أحدث الجنون والذهول، وتلك حالة لا تقبل العلاج»[1].

وقال أيضاً: «فإن تكرار النظر قد نقش صورة المحبوب في القلب نقشاً متمكِّناً، وعلامة ذلك: امتلاء القلب بالحبيب، فكأنه يراه حالاً في الصدر، وكأنّه يضمه إليه عند النوم ويحادثه في الخلوة، فاعلم أن سبب هذا الطمعُ

---

(١) ذم الهوى ص٤٩٨.

في نيل المطلوب، وكفى بالطمع مرضاً، وقلّ أن يقع الفسق إلا في المطموع فيه، فإن الإنسان لو رأى زوجة الملك فهويها لم يكد قلبه يتعلّق بها، لأجل اليأس من مثلها، فأما من طمع في شيء فإن الطمع يحمله على طلبه، ويعذّبه إن لم يدركه.

وعلاج هذا المرض: العزم القوي على البعد عن المحبوب، والقطع الجازم على غض البصر عنه، وهجران الطمع فيه، وتوطين النفس على اليأس منه»[1].

وقال في موضع ثالث: «ومما يُداوى به الباطن أن تفكّر، فتعلم أن محبوبك ليس كما في نفسك، فأعمل فكرك في عيوبه تسلُ، فإن الآدمي محشوٌّ بالأنجاس والأقذار، وإنما يرى العاشق معشوقه في حال الكمال، ولا يُصوِّر له الهوى عيباً؛ لأن الحقائق لا تنكشف إلا مع الاعتدال، وسلطان الهوى حاكم جائر يغطي المعايب،

---

(١) ذم الهوى ص٥٠١، ٥٠٢ = باختصار يسير وانظر ص٥٣٧.

فيرى العاشقُ القبيح من معشوقه حسناً.

ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا أعجبتْ أحدكم امرأة فليذكر مناتنها»[١].

وأما ما حرَّره ابن القيم في سبيل التخلص من شراك هذه الشهوات، فنختار منه بضعة حلول، ومن ذلك قوله:

«التفكر في أنه لم يُخلق للهوى، وإنما هُيِّئ لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصيته للهوى، كما قيل:

قـد هيـأوك لأمـر لـو فطنـت لـه
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل»[٢]

«أن يأنف لنفسه من ذلّ طاعة الهوى، فإنه ما أطاع أحد هواه قط إلا وجد في نفسه ذلاً، ولا يغتر بصولة أتباع الهوى وكِبرهم، فهم أذل الناس بواطن، قد جمعوا بين

---

(١) ذم الهوى ص٥٤٦، ٥٤٧ = باختصار يسير.
(٢) روضة المحبين ص٤٧٢.

خصلتيّ الكِبر والذل»[١]

«أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئاً إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السُنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصدّه عن الحق، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يولي بهواه ويعزل بهواه»[٢].

«أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظم من جهاد الكفّار فليس بدونه، قال رجل للحسن البصري رحمه الله تعالى: يا أباسعيد، أي الجهاد أفضل؟ قال: جهادك هواك. وسمعت شيخنا «ابن تيمية» يقول: جهاد النفس أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى

---

(١) المرجع السابق ص٤٨٣.
(٢) المرجع السابق، ص٤٧٤.

يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى يخرج إليهم»[١]

«أن اتباع الهوى يغلق عن العبد أبواب التوفيق، ويفتح عليه أبواب الخذلان؛ فتراه يلهج بأن الله لو وفّق لكان كذا وكذا، وقد سدّ على نفسه طرق التوفيق باتباعه هواه، قال الفضيل بن عياض: من استحوذ عليه الهوى واتباع الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق». »[٢].

«أن التوحيد واتباع الهوى متضادان، فإن الهوى صنم، ولكل عبد صنم في قلبه بحسب هواه، وإنما بعث الله رسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له، وليس مراد الله تعالى كسر الأصنام المجسّدة وترك الأصنام التي في القلب، بل المراد كسرها من القلب أولاً.. وتأمّل قول الخليل ﷺ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[٣] كيف

(١) المرجع السابق، ص٤٧٨.
(٢) المرجع السابق ص٤٧٩.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥٢.

تجده مطابقاً للتماثيل التي يهواها القلب ويعكف عليها ويعبدها من دون الله تعالى؟»[١].

«إن لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوى، كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذاباً يعذَّب به في قلبه كما قال القائل:

مآرب كانت في الشباب لأهلها
عِذاباً فصارت في المشيب عَذاباً

فلو تأملت حال كل ذي حالة سيئة زرية لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره على عقله.

ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي رشده كانت نهايته العز والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس، قيل للمهلب بن أبي صفرة: بم نلت ما نلت؟ قال: بطاعة

---

(١) المرجع السابق ص٤٨١، ٤٨٢.

الحزم وعصيان الهوى. فهذا في بداية الدنيا ونهايتها، وأما الآخرة فقد جعل الله سبحانه الجنة نهاية من خالف هواه، والنار نهاية من اتبع هواه»[١].

وبالجملة فإنه ما من داء إلا وله دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله، والمتعيّن على من ابتلي بشيء من هذه الشهوات أن يبادر إلى أسباب النجاة ووسائلها.. بالعزيمة الصادقة، والصبر والمصابرة، وعلو الهمة والاشتغال بمعالي الأمور والابتعاد عن سفاسفها، والمجاهدة في ذات الله تعالى ونهي النفس عن الهوى، واصلاح الخواطر والإرادات، وصحبة الصالحين، ودوام التضرع إلى الله تعالى، والانكسار بين يديه سبحانه.

* * *

(١) المرجع السابق، ص٤٨٣، ٤٨٤.

شـــهوة المـــال

استولى على أفئدة كثير من الناس الولع بالمال فأشربوا حبّه والتعلق به، فاستعبدهم الدرهم والدينار، وصار هجّيراهم ومقصودهم وجلّ حديثهم واهتمامهم، فإن أحبوا فلا يحبون إلا لأجل المال، وإن أبغضوا فلا يبغضون إلا لأجل المال، إن أعطوا رضوا، وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون.

ولقد ذمّ الله تعالى الدنيا في كتابه في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

وأما الأحاديث في ذم الدنيا وفضل الزهد فيها فكثيرة جداً.

منها: حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: «إنّ مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض»[٢].

وعن كعب بن عياض رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال»[٣].

---

(١) متفق عليه.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[١].

وورد عن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ أنه قال: «إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الأشغال، لا يفتح رجل على نفسه بابَ شغلٍ إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب»[٢].

وكان يقول أيضاً: «أهينوا الدنيا فوالله لأهنأ ما تكون إذا أهنتها»[٣]. وكان الحسن يحلف بالله ما أعز أحد الدرهم إلا أذله الله[٤].

ولابن القيّم رحمه الله كلام نفيس في الترغيب بالزهد

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) اخرجه ابن المبارك في الزهد ص١٨٩.
(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٧٩.
(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١٥٢، وانظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٧٦.

في الدنيا، والإقبال على الآخرة، نورد منه ما يلي:

«لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين: نظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والانكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف، فطالبها لا ينفك من همّ قبل حصولها، وهمّ في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها، فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولابد، ودوامها وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما هاهنا، فهي كما قال الله سبحانه: ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[1]، فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ١٧.

إلى أن قال: «وقد توعد الله سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، وغفل عن آياته ولم يرج لقاءه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1]. وعيّر سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2] وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

ويكفي في الزهد في الدنيا قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا

(١) سورة يونس، الآية: ٧.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٨.

كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾[١]»[٢].

وجاء في كتاب عدة الصابرين لابن القيم مايلي:

«جميع الأمم المكذبة لأنبيائهم إنما حملهم على كفرهم وهلاكهم حبّ الدنيا، فإن الرسل لما نهوهم عن الشرك والمعاصي التي كانوا يكسبون بها الدنيا، حملهم حبُّها على مخالفتهم وتكذيبهم، فكل خطيئة في العالم أصلها حبّ الدنيا.. فحب الدنيا والرياسة هو الذي عمر النار بأهلها، والزهد في الدنيا والرياسة هو الذي عمَّر الجنة بأهلها، والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخمر بكثير... وصاحب هذا السكر لا يفيق منه إلا في ظلمة اللحد... والدنيا تسحر العقول أعظم سحر، قال مالك بن دينار: اتقوا السَّحارة، اتقوا السَّحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(٢) الفوائد ص٨٧ ـ ٩٨ = باختصار.

وأقل ما في حبها أنه يلهي عن حبّ الله وذكره، ومن ألهاه ماله عن ذكر الله تعالى فهو من الخاسرين، وإذا لها القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد»[١].

وقد بالغ العلماء في التحذير من الاستمتاع بالدنيا والانكباب عليها، حتى جعلوا مجرد النظر إلى الدنيا إن كان على سبيل استحسان الدنيا والركون إليها مذموماً، كما وضّحه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «النظر إلى الأشجار والخيل والبهائم إذا كان على وجه استحسان الدنيا والرياسة والمال فهو مذموم؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[٢].

وأما إذا كان على وجه لا ينقص الدين، وإنما فيه راحة النفس فقط، كالنظر إلى الأزهار، فهذا من الباطل الذي

---

(١) عدة الصابرين ص١٨٥، ١٨٦ = باختصار.
(٢) سورة طه، الآية: ١٣١.

يستعان به على الحق»[١].

إن الحرص على المال يكون على وجهين كما قرره الحافظ ابن رجب بقوله: «**أحدهما**: شدة محبة المال مع شدة طلبه من وجوه مباحة، والمبالغة في طلبه والجد في تحصيله واكتسابه من وجوهه مع الجهد والمشقة.. ولو لم يكن في الحرص على المال إلا تضييع العمر الشريف الذي لا قيمة له وقد يمكن صاحبه فيه اكتساب الدرجات العلى والنعيم المقيم فضيَّعه بالحرص في طلب رزق مضمون مقسوم لا يأتي منه إلا ما قدر وقسِّم، ثم لا ينتفع به بل يتركه لغيره ويرتحل عنه، فيبقى حسابه عليه ونفعه لغيره، فيجمع لمن لا يحمده، ويقدم على من لا يعذره، لكفاه بذلك ذماً للحرص، **فالحريص يضيع زمانه الشريف، ويخاطر بنفسه التي لا قيمة لها في الأسفار**

---

(١) مختصر الفتاوىٰ المصرية ص٢٩، وانظر شجرة المعارف والأحوال للعز بن عبدالسلام ص٧.

وركوب الأخطار لجمع مال ينتفع به غيره.

النوع الثاني من الحرص على المال: أن يزيد على ما سبق ذكره في النوعِ الأول، حتى يطلب المال من الوجوه المحرمة، ويمنع الحقوق الواجبة، فهذا من الشح المذموم، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١].

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[٢]

وإنما يصير حبّ المال مذموماً إن كان سبباً في ارتكاب المعاصي أو ترك الواجبات، يقول شيخ الإسلام في هذا الصدد: «حبُّ المال والشرف يفسد الدين، والذي يعاقب عليه الشخص هو الحبّ الذي يدعو إلى المعاصي مثل

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٢) شرح حديث: «ماذئبان جائعان» ص٧ ـ ١١ = باختصار.

الظلم والكذب والفواحش، ولا ريب أن فرط الحرص على المال والرياسة يوجب ذلك، أما مجرد حب القلب إذا كان الإنسان يفعل ما أمر الله به، ويترك ما نهى عنه، ويخاف مقام ربه، وينهى النفس عن الهوى، فإن الله تعالى لا يعاقب على مثل هذا إذا لم يكن معه عمل.

وجمع المال إذا قام فيه بالواجبات ولم يكتسبه من الحرام لا يعاقب عليه، لكن إخراج الفضل والاقتصار على الكفاية أفضل وأسلم، وأفرغ للقلب، وأجمع للهم، وأنفع للدنيا والآخرة، وقد قال ﷺ: «من أصبح والدنيا أكبر همه شتت الله عليه شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ماكُتب له، ومن أصبح والآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه ضيعته، وأتته الدنيا وهي راغمة»[1].

---

(١) مختصر الفتاوى المصرية ص٤٩٣، وانظر ص٩٥، وانظر مجموع الفتاوى ١٠/ ١٨٩، ١٩٠، ومختصر منهاج القاصدين لأحمد بن قدامة ص١٩٥.

وينبغي التوسط إزاء المال بين الشره والانهماك عليه وبين تركه والإعراض عنه، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ فخطب الناس فقال: «**لا والله ما أخشى عليكم إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا، فقال رجل: يا رسول الله، أو يأتي الخير بالشر؟ فصمت رسول الله ﷺ ثم قال: كيف قلت؟ قال: يارسول الله، أو يأتي الخير بالشر؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الخير لا يأتي إلا بالخير، وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم إلا آكلة الخضر أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت وبالت، ثم اجترَّت فعادت فأكلت، فمن أخذ مالاً بحقه بُورك له فيه، ومن أخذ مالاً بغير حقه فمثله كمثل الذي يأكل ولا يشبع**»[1].

وقد شرح ابن القيم هذا الحديث وبيّن المسلك الوسط تجاه المال فقال: «قوله: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل

---

(١) متفق عليه.

حبطاً أو يلم» هذا من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانهماك عليها والمسرة فيها، وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع فتأكل منها بأعينها فربما هلكت حبطاً ـ والحبط انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو من المرض ـ فكذلك الشرهه في المال يقتله شرهه وحرصه، فإن لم يقتله قارب أن يقتله وهو قوله «أو يلم» وكثير من أرباب الأموال إنما قتلهم أموالهم، فإنهم شرهوا في جمعها واحتاج إليها غيرهم، فلم يصلوا إليها إلا بقتلهم أو ما يقاربه من إذلالهم وقهرهم.

وقوله: «إلا آكلة الخضر» هذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته، مثّله بالشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها، أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها..

وفي قوله: «استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت» ثلاث فوائد:

أحدها: أنها لما أخذت حاجتها من المرعى تركته وبركت مستقبلة الشمس لتسمرئ بذلك ما أكلته.

الثانية: أنها أعرضت عما يضرها من الشره في المرعى، وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس التي يحصل لها بحرارتها انضاج ما أكلته وإخراجه.

الثالثة: أنها استفرغت بالبول والثلط ما جمعته من المرعى في بطنها، فاستراحت بإخراجه، ولو بقي فيها لقتلها، فكذلك جامع المال مصلحته أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة.

وفي هذا الحديث إشارة إلى الاعتدال والتوسط بين الشره في المرعى القاتل بكثرته وبين الإعراض عنه وتركه بالكلية فتهلك جوعاً، وتضمن الخبر أيضاً إرشاد المكثر من المال إلى ما يحفظ عليه قوته وصحته في بدنه وقلبه، وهو الإخراج منه وإنفاقه ولا يحبسه فيضره حبسه»[١].

وإذا تقررت هذه الوسطية تجاه المال فإن على العلماء والدعاة خصوصاً أن يعنوا بتحقيق الكفاف والاستغناء عن

---

(١) عدة الصابرين ص١٩٨، ١٩٩ = باختصار.

الناس كما يعنوا بالزهد والتقلل من الدنيا، فإن استغناء العلماء عن الناس عموماً، والحكام خصوصاً من أعظم الأسباب في حفظ مكانة العلماء وعظم شأنهم.

يقول سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: «لأن أخلف عشرة آلاف درهم أحاسب عليها، أحبّ إليّ من أن احتاج إلى الناس.. ولولا هذه الدراهم لتمندل بنا هؤلاء الملوك»[1].

ويقول ابن الجوزي حاثاً على الاستغناء عن الناس: «ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس، فإنه إذا ضم إلى العلم حيز الكمال، وإن جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب، فاحتاجوا إلى ما لابد منه، وقل الصبر فدخلوا مداخل شانتهم وإن تأولوا فيها.

ولقد رأينا جماعة من المتصوفة والعلماء يغْشون الولاة لأجل نيل ما في أيديهم، فمنهم من يداهن ويرائي، ومنهم

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٨١.

من يمدح بما لا يجوز، ومنهم من يسكت عن منكرات إلى غير ذلك من المداهنات، وسببها الفقر، فعلمنا أن كمال العز وبعد الرياء إنما يكون في البعد عن العمال الظلمة، ولم نر من صح له هذه إلا في أحد رجلين:

أما من كان له مال كسعيد بن المسيب كان يتجر في الزيت وغيره، وسفيان الثوري كانت له بضائع، وابن المبارك.

وأما من كان شديد الصبر، قنوعاً بما رزق وإن لم يكفه كبشر الحافي وأحمد بن حنبل. ومتى لم يجد الإنسان كصبر هذين، ولا كمال أولئك، فالظاهر تقلبه في المحن والآفات، وربما تلف دينه.

فعليك ياطالب العلم بالاجتهاد في جمع المال للغنى عن الناس، فإنه يجمع لك دينك، فما رأينا في الأغلب منافقاً في التدين والتزهد والتخشع، ولا آفة طرأت على عالم إلا بحب الدنيا، وغالب ذلك الفقر، فإن كان من له ما يكفيه ثم يطلب بتلك المخالطة الزيادة، فذلك معدود

في أهل الشره، خارج عن حيز العلماء نعوذ بالله من تلك الأحوال»[١].

والمقصود أن على العبد أن يقنع بالكفاف من هذا المال، مما يحتاجه في مطعمه ومشربه ومسكنه وملبسه ونحو ذلك، وأن يطلب ذلك من الله تعالى وحده، ويرغب إليه فيه، وألا يكون سائلاً للمال بلسانه ـ إلا لضرورة ـ أو مستشرفاً إليه بقلبه.

وأما مالا يحتاج إليه العبد فلا ينبغي له الاشتغال به؛ لأن ذلك يؤول إلى تعلق القلب بالمال واستعباده له، كما يفوت عمره في تحصيل رزق مقسوم، وقد يحمله الحرص على المال على اكتسابه بالحرام ومنع الحقوق الواجبة.

* * *

(١) صيد الخاطر ص١٥٤، ١٥٥ باختصار. وانظر ص١٩٣.

شـــهوة الرياســـة

شهوة حبّ الرياسة والمنصب إحدى الشهوات التي استعبدت كثيراً من الناس، واحكمت على أفئدتهم، فصارت الولايات والمناصب وما يتبعها من الشهرة والظهور مقصودهم ومرادهم.

وقد سبق إيراد حديث كعب بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»(١).

يقول الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ في شرح هذا الحديث: «فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف إفساد لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم، بل إما أن يكون مساوياً وإما أكثر، يشير أنه لا يسلم

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

من دين المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلا القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين فيها إلا القليل.

فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا... إلى أن قال: **وأما حرص المرء على الشرف فهو أشد إهلاكاً من الحرص على المال؛ فإن طلب شرف الدنيا والرفعة فيها والرياسة على الناس والعلو في الأرض أضر على العبد من طلب المال، وضرره أعظم، والزهد فيه أصعب، فإن المال يبذل في طلب الرياسة والشرف»**[1]

ثم ذكر رحمه الله أقسام الحرص على الشرف فقال: **«والحرص على الشرف على قسمين:**

أحدهما: طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال، وهذا خطر جداً، وهو في الغالب يمنع خير الآخرة

---

(١) شرح حديث ما ذئبان جائعان ص٧، ١٣ باختصار.

وشرفها وكرامتها وعزها، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] وقلَّ من يحرص على رياسة الدنيا بطلب الولايات فيوفق بل يوكل إلى نفسه.

إلى أن قال: «ومن دقيق آفات حبّ الشرف: طلب الولايات والحرص عليها، وهو باب غامض لا يعرفه إلا العلماء بالله العارفون به المحبون له.. واعلم أن حب الشرف بالحرص على نفوذ الأمر والنهي، وتدبير أمر الناس، إذا قصد بذلك مجرد علو المنزلة على الخلق والتعاظم عليهم، وإظهار صاحب هذا الشرف حاجة الناس وافتقارهم إليه وذلهم له في طلب حوائجهم منه، فهذا نفسه مزاحمة لربوبية الله وإلهيته.

القسم الثاني: طلب الشرف والعلو على الناس بالأمور الدينية كالعلم والعمل والزهد، فهذا أفحش من الأول،

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.

وأقبح وأشد فساداً وخطراً؛ فإن العلم والعمل والزهد إنما يطلب به ما عند الله من الدرجات العلى والنعيم المقيم، والقربى منه والزلفى لديه»[١].

ومما يؤكد خطر هذه الشهوة أن جنس بني آدم مولعٌ بحبّ الرياسة والظهور، كما بيَّنه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «إن الإنسان إذا اعتبر وتعرف نفسه والناس رأى الواحد يريد نفسه أن تطاع وتعلو بحسب الإمكان، والنفوس مشحونة بحب العلو والرئاسة بحسب إمكانها، فتجده يوالي من يوافقه على هواه، ويعادي من يخالفه في هواه، وإنما معبوده ما يهواه وما يريده. . . إلى أن قال: فإن كان مطاعاً مسلماً طلب أن يطاع في أغراضه، وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية لله، ويكون مَنْ أطاعه أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه، وهذه شعبة من حال فرعون وسائر المكذبين للرسل. وإن كان عالماً

---

(١) شرح حديث ماذئبان جائعان ص٧، ١٣ = باختصار.

أو شيخاً أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره، وربما أبغض نظيره حسداً وبغياً»[١].

إن حبَّ الرياسة وطلبها لا ينفك عن مفاسد متعددة وشرور متنوعة، وقد أشار ابن رجب إلى بعضها بقوله: «واعلم أن الحرص على الشرف يستلزم ضرراً عظيماً، قبل وقوعه في السعي في أسبابه، وبعد وقوعه بالحرص العظيم الذي يقع فيه صاحب الولاية من الظلم والتكبر وغير ذلك من المفاسد»[٢].

وقال في موضع آخر: «إن حب المال والرئاسة والحرص عليها يفسد دين المرء حتى لا يبقى منه إلا ما شاء الله.

والنفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها، ومن

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ١٨ = باختصار.

(٢) شرح حديث ما ذئبان جائعان ص١٣، ١٥، ١٦، ٢٠ = باختصار.

هنا نشأ الكِبر والحسد»[١].

وذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ بعض مفاسد هذه الشهوة فقال: «إن طلاب الرياسة يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض، وتعبد القلوب لهم، وميلها إليهم، ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم، فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لايعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس دون حق الله، وتعظيم من حقّره الله، واحتقار من أكرمه الله، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك، ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد، والرؤساء في عمى عن هذا، فإذا كشف الغطاء تبيّن لهم فساد ما كانوا عليه، ولا سيما إذا حشروا في صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم

(١) المرجع السابق ص٢٩.

وتصغيراً كما صغَّروا أمر الله وحقَّروا عباده»[١].

وإذا تقرر ذم حبّ الرياسة وبيان مفاسدها، فإن حبَّ الإمارة للدعوة إلى الله تعالى يفارق حب الرياسة، فإن مقصود هذه الإمارة تعظيم الله تعالى وأمره، وأما مقصود حب الرياسة فهو تعظيم النفوس والسعي في حظوظها، وأئمة العدل وقضاتهم لا يدعون إلى تعظيم نفوسهم ألبتة، بل إلى تعظيم الله وحده وإفراده بالعبودية، ومنهم من كان لا يريد الولاية إلا للاستعانة بها على الدعوة إلى الله وحده.

فمن سأل ربه أن يجعله للمتقين إماماً يقتدي به المتقون كما اقتدى هو بالمتقين لم يضره ذلك، بل يحمد عليه؛ لأنه داع إلى الله يحب أن يُعبد ويطاع، فهو يحب ما يكون عوناً على ذلك موصلاً إليه[٢].

---

(١) كتاب الروح ص٤٣٣، ٤٣٤.

(٢) انظر: شرح حديث ما ذئبان جائعان ص١٩، وكتاب الروح =

إن على أهل العلم وطلابه أن يحذروا من شهوة حب الرياسة والشهرة، فإنه داء عضال ينبغي المسارعة في علاجه بالتوبة إلى الله تعالى وتزكية النفس ومحاسبتها.

يقول سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: «الرياسة أحب إلى القراء من الذهب الأحمر»[١].

وقد تحدث أبو الفرج ابن الجوزي عن أولئك العلماء المولعين بالرياسات والشهرة فقال: «واليوم صارت الرياسات من كل جانب، وما تتمكن الرياسات حتى يتمكن من القلب الغفلة، ورؤية الخلق، ونسيان الحق، فحينئذ تطلب الرياسة على أهل الدنيا.

ولقد رأيت من الناس عجباً حتى مَنْ يتزيا بالعلم، إن رآني أمشي وحدي أنكر عليّ، وإن رآني أزور فقيراً عظّم ذلك، وإن رآني أنبسط بتبسم نقصت من عينه. فقلت:

= ص٤٣٢.

(١) كتاب الورع للإمام أحمد بن حنبل ص٩١.

فواعجباً هذه كانت طريق الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم، فصارت أحوال الخلق نواميس لإقامة الجاه، لا جرم والله سقطتم من عين الحق، فأسقطكم من عين الخلق.

فالتفتوا إخواني إلى إصلاح النيات، وترك التزين للخلق، ولتكن عمدتكم الاستقامة مع الحق، فبذلك صعد السلف وسعدوا»[1].

وفي ختام هذه الرسالة نسأل الله تعالى أن يرزقنا الهدى والتقى والعفاف والغنى، وأن يجنبنا شهوات الغي ومضلات الهوى، وبالله التوفيق.

* * *

(١) صيد الخاطر ص٢٢٧، وانظر ص٣٦٠، وانظر أخلاق العلماء للآجري ص١٥٧.

الفهــرس

الموضوع	الصفحة
ـ التعلق بالله أساس التوحيد	٣
ـ وسطية الإسلام تجاه الشهوات	٥
ـ اتباع الشهوات يؤول إلى عبادتها	٦
ـ الانهماك في الشهوات مذموم عقلاً	٧
ـ الصبر عن الشهوات أيسر من الصبر على عواقبها	٩
ـ **شهوة النساء**	١١
ـ الفتنة بالنساء لا حدّ لها	١١
ـ قصص واقعية في أن عشق النساء يؤول إلى الكفر بالله	١٤
ـ الغناء رقية الزنا	١٧
ـ مفاسد النظر المحرم	١٩
ـ أضرار الاختلاط ومفاسده	٢٢
ـ سبب الانهماك في الشهوات: ضعف التوحيد	٢٣
ـ عقوبات ومفاسد الافتتان بالنساء	٢٥
ـ مفاسد الزنا	٢٧
ـ العلاج لفتنة النساء	٣٠

ـ **شهوة المال** ٣٨
ـ ذم الدنيا في النصوص الشرعية ٣٨
ـ لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا ٤١
ـ حب الدنيا سبب كفر الأمم السابقة ٤٣
ـ أنواع الحرص على المال ٤٥
ـ متى يكون حبّ المال مذموماً؟ ٤٦
ـ التوسط تجاه المال ٤٨
ـ أهمية الكفاف، لاسيما لأهل العلم والدعوة ٥٠
ـ **شهوة الرياسة** ٥٤
ـ فتنة الرياسة وخطرها ٥٤
ـ الحرص على الرياسة على قسمين ٥٥
ـ النفوس مشحونة بحب الرياسة ٥٧
ـ مفاسد حب الرياسة ٥٨
ـ الفرق بين حب الرياسة وبين حب الإمارة للدعوة إلى الله ٦٠
ـ وقوع بعض العلماء في دائرة حب الرياسة ٦١
ـ **الفهـــرس** ٦٣

* * *